

إشكالية الحداثة: من العقلانية الأداة إلى العقلانية التواصلية

The Problematic of Modernity: From Instrumental Rationality to Communicative Rationality

وابل نعيمة¹

¹جامعة الجزائر2، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة

naima.ouabel@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 20 / 08 / 2025 تاريخ القبول: 22 / 10 / 2025 تاريخ النشر: 16 / 12 / 2025

Abstract :

This study addresses the problematic of modernity from instrumental rationality to communicative rationality, as articulated by Max Horkheimer, Theodor Adorno, and Jürgen Habermas, a central debate within the Frankfurt School.

First; we present Horkheimer and Adorno's critique of instrumental rationality as a mode of domination. Secondly, we examine Habermas's position, in which he defends modernity by seeking to move beyond instrumental rationality toward communicative rationality, in an effort to revive the modern project.

Keywords: Modernity; rationality; communicative; instrumental; technology.

المؤلف المرسل: وابل نعيمة

البريد الإلكتروني: naima.ouabel@univ-alger2.dz

الملخص:

يتناول هذا الموضوع إشكالية الحداثة: من العقلانية الأداتية إلى العقلانية التواصلية، كما طُرحت لدى كل من ماكس هوركهايمر، وتيودور أدورنو ويورغن هابرماس، وذلك بوصفها من أكثر القضايا إثارة للجدل داخل أوساط مدرسة فرانكفورت.

نحاول أولاً أن نقدم طرح كل من هوركهايمر وأدورنو لإشكالية الحداثة، من خلال نقدهما للعقلانية الأداتية التي رأيا فيها شكلاً من أشكال الهيمنة. أمّا ثانياً، فسنعرض موقف هابرماس المدافع عن الحداثة، حيث سعى إلى تجاوز العقلانية الأداتية نحو العقلانية التواصلية من أجل إعادة إحياء هذا المشروع من جديد.

الكلمات المفتاحية: حداثة؛ عقلانية؛ أداتية؛ تواصلية؛ تقنية.

1. مقدمة:

حين نشأت الحداثة كمشروع تنويري قائم على أنقاض الماضي، كانت ترمي إلى تأسيس مجتمع حديثي يستند إلى أسس عقلانية كمرجعية للمعرفة، بدلاً من الأسس الميتافيزيقية (الدينية) سمة العصور الوسطى. هذا التصوّر الجديد لبنية مجتمعية حديثة، إنّما جاء ليعيد النظر في الكثير من الأفكار والمفاهيم التي بقيت إرثاً عالقاً منذ المرحلة اللاهوتية-الوسطية. فما كان سائداً هو أنّ الكنيسة ظلّت لعهود طويلة تُفسّر الواقع وتُقرّره استناداً إلى النص الديني، ما نتج عنه والحال هذه ركوداً فكرياً شلّ من قدرة الإنسان على فهم واقعها فهما علمياً ومنطقياً صحيحاً، إذ حلّ محلّه التفسير الميتافيزيقي (الديني) لهذا الواقع.

هذا الانتقال من الأساس اللاهوتي (الديني) إلى الأساس العقلاني يستدعي منا الرجوع إلى تلك المرحلة التي مهّدت إلى ظهور الحداثة كإحدى أهمّ نتاجاتها، ألا وهي مرحلة التنوير.

يُعتبر عصر الأنوار لحظة حاسمة في تاريخ الفكر الإنساني عموماً، وتاريخ الفكر الأوروبي على وجه الخصوص. إذ يُعزى إليه الفضل في تنوير عالم الإنسان وإخراجه من الظلمات التي عاش فيها لفترة طويلة من الزمن تحت وطأة الكنيسة. وما كان ذلك ليحدث لولا الوعي بأهمية أن يكون الإنسان هو ذاته صانعا لمصيره على هذه الأرض، بفضل ما يملك من قدرات بإمكانها أن تغَيّر واقعه.

ومن بين المظاهر الكبرى التي ميّزت مرحلة الأنوار:

أ- الإصلاح الديني: وهو أهمّ حركة شهدتها المجتمع الأوروبي وهو يتأهب للدخول في مرحلة جديدة مختلفة تماماً عما سبقها من المراحل الأخرى. ما ميّزها هو إعادة قراءة النص الديني (الكتاب المقدّس: الإنجيل) قراءة عقلانية (منطقية) هدفها إصلاح التشوّه الذي طال أصوله بتأثير من رجال الدين المسيحي على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم (الأرثوذكسية، البروتستانتية، الكاثوليكية).

ب- النقلة العلمية: ما ميّزها، هو ذلك التطوّر العلمي والتقني الهائل نتيجة تطوّر المناهج العلمية في العصر الحديث، والتي جمعت بين العقل والتجربة. وكانت نتيجته تفسير الظواهر الطبيعية بردها إلى أسباب طبيعية

صرفه لا إلى عوامل تتجاوز الطبيعة كما كان عليه الأمر سابقًا. هذا التقدّم الحاصل على مستوى العلوم الطبيعية أدّى إلى ظهور "وضعية علمية" تثق في قدرة العلم على فهم الطبيعة وتفسيرها تفسيراً علمياً وضعياً بعيداً عن الميتافيزيقا.

ج- ظهور قيَم إنسانية عالمية (الحرية، العدالة، المساواة...): لقد جاء التنوير وهو يُبشّر بمجتمع خالٍ من كل أشكال الاستبداد التي كبّلت المجتمعات الأوروبية لعهود طويلة (قمع الفكر، الإرادة، الحريات...) بسبب تسلّط رجال الدين آنذاك. ليحل محلّها عهداً جديداً "متنوراً" يقوم على مفاهيم الحرية والعدالة والمساواة.

لكن، وعلى الرّغم من الأهميّة التي تُمثّلها الحداثة كمشروع عقلائي (تنويري)، فإنّها لم تحظ بقبول لدى بعض الفلاسفة (نقّاد الحداثة)، ممّن رأوا فيها تغليباً للعقل الأدائي على حساب القيَم الإنسانية والحضارية والروحية. ومن بين هؤلاء نخص في مقالنا هذا: ماكس هوركهايمر (Max Horkheimer) (1895-1973) وتيودور ف. أدورنو (Theodor W. Adorno) (1903-1969).

في المقابل، هناك من الفلاسفة من دافع عنها مثل يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) (1929) الذي اعتبرها مشروعاً تحرّرياً عقلائياً لم يكتمل بعد، ويجب تصحيحه وتكملته انطلاقاً من تصوّر جديد للعقلانية غير العقلانية الأدائية.

الإشكالية:

بناءً على ما تقدّم طرح الإشكالية التالية: كيف تجلّى هذا التباين في مواقف فلاسفة مدرسة فرانكفورت من الحداثة، بين نقد هوركهايمر وأدورنو

لسلطة العقل الأداتي، ومحاولة هابرماس إعادة بناء مشروع الحداثة على أسس عقلانية وتواصلية؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار الانتقال من العقلانية الأداتية إلى العقلانية التواصلية محاولة جادة لتجاوز مأزق الحداثة؟ للإجابة على هذه الإشكالية اعتمدت المنهج التحليلي الوصفي من أجل تحليل الأبعاد الحقيقية لموقف كل من هوركهايمر وأدورنو وهابرماس تجاه الحداثة، ووصف الإشكالية المطروحة بطريقة تمكننا من فهم أسبابها والوصول إلى نتائج بناءً على نصوص موضوعية.

2. موقف هوركهايمر وأدورنو من الحداثة:

ما ميّز هوركهايمر وأدورنو هو تبنيهما موقفا نقديا لادّعاء تجاه الحداثة ومنجزات العقل الأنواري عموما، معتبران أن الوعود التي بشر بها التنوير لم تكن سوى وعودا زائفة تخفي وراءها أشكالا جديدة من الهيمنة باسم التقدم العلمي والتطور الصناعي (التقني)، كما تكشف في الوقت نفسه عن مدى تدمير التنوير لوعيه بذاته نتيجة اعتماده هذا الاتجاه «...كان برنامج التنوير برنامجا يهدف لفك السّحر عن العالم... لقد أراد التحرّر من الأساطير وأن يحمل للمخيلة سند العلم...دون ما التفتت إلى ذاته، فإنّ التنوير قد أفنى وعيه بذاته وصولا إلى الأثر الأخير «¹. وهو ما جعلهما يعتبران أن معنى "العلم" قد أصبح يطرح إشكالا جدّيا في ظل تراجع القيم الروحية والإنسانية للحضارة الغربية أمام ظهور النزعة العلموية وتطورها. وعلى هذا يكون التنوير -حسبهما- قد أنتج عقلانية أداتية

(تقنية) مظهرها العلم وباطنها السيطرة ونتيجتها الاغتراب «...ففي أيامنا لا فرق بين العقلانية التقنية وعقلانية السيطرة بالذات. إنها سمة المجتمع المتغرب...»². لقد كان مبرّر هوركهايمر وأدورنو في نقدهما للحداثة، هو أنّ هذه الأخيرة، وعلى امتداد مسيرتها، لم تكشف سوى عن مظهر واحد للعقل، وهو العقل الأدائي الذي ساهم في انتاج النزعة العلموية، والتي شجّعت بدورها على تطوّر التقنية داخل المجتمع البورجوازي (الصناعي) حيث أصبحت أهمّ قطاع مهيم فيه من خلال تنظيمات عدّة (السياسة، الاقتصاد، الثقافة، الإعلام...). وبالنسبة إليهما، فإنّ الخطر المحدق بالمجتمع لا يكمن في العلم في حد ذاته، بل في توظيف هذا العلم لأهداف تؤدي إلى السيطرة والهيمنة داخل المجتمع تحت شعار التقدم والرّفاهية، والهدف من وراء ذلك يبقى دائما تجميع الثروة لصالح الرأسماليين «...إنّ التقنية هي أساس هذا العلم، أو المعرفة. فالعلم هذا لا يهدف إلى إيجاد مفاهيم أو صور، أو سعادة المعرفة، بل لإقامة منهج، واستثمار عمل الغير وتكوين رأس مال...»³. فكيف يطرحان هذا الاشكال؟

إنّ هوركهايمر وأدورنو، وهما يتأملان مسار العقل الأدائي، وتطوّره من خلال التقنية في مجتمع يقوم أساسا على الصناعة والتكنولوجيا، اكتشفا أنّ هذا العقل نفسه قد تحوّل إلى أداة من أدوات الهيمنة (القمع) داخل المجتمع، أخذاً بذلك أبعادا تجاوزت الحياة الاقتصادية إلى مستويات أخرى (اجتماعية، سياسية، ثقافية...) وذلك ما برز من خلال:

1.2 الجانب الاقتصادي:

يرى هوركهايمر وأدورنو أنّ الحياة الاقتصادية القائمة على العقلانية الأدائية استطاعت أن تُحدث تحوّلًا جذريًا على مستوى طبيعة الذات الإنسانية.

ولقد تميز ذلك التحوّل من خلال خضوع الفرد داخل المجتمع البورجوازي الحديث إلى تلك القوانين الصارمة في العمل التي يفرضها النظام الليبرالي. وكان من نتائجها؛ أنّ هذا الإنسان (العامل) أصبح ينظر إلى نفسه في خضم هذه الأوضاع، على أنّه مجرد أداة وظيفتها تحقيق غايات مادية في عالم الأشياء المادي. لكن المفارقة -حسب هوركهايمر وأدورنو-، هو أنّ هذا الفرد وهو يسعى إلى تحقيق هذه المطالب المادية، فهو في الوقت نفسه يُحقق جانبًا من الإشباع والاستمتاع من خلال هذه الماديات، ما جعله يرى فيها تحققًا لذاته ولفردانيته ولحياة الرفاهية (السّعادة)⁴. ما يعني أنّ العقلانية الأداة أصبحت تمثل بالنسبة للأفراد مصلحة نفعية مرتبطة بتحقيق أهداف مادية يرون فيها جانب الإشباع الذاتي والمتعة والرفاهية كما أنّها تخدم فردانيتهم واستقلالهم «...فإذا كان الفرد أخذًا في الاختفاء خلف الأداة التي يستخدم فهو في الوقت نفسه قد أحسن استخدام هذه الأداة أكثر من أي وقت آخر. وفي زمن يسود موقف لا عدالة فيه، يزداد أيضًا عجز الجماهير بقدر ما يزداد التراكم الكمي للخيرات التي توضع بتصرفها...»⁵.

2.2 الجانب الاجتماعي:

بالنسبة إلى هوركهايمر وأدورنو، فإنّ النظام الرأسمالي، وبفضل المبدأ العام الذي تقوم عليه قاعدته الاقتصادية "الحرية الاقتصادية"، استطاع أن يطور مبدأ الفردانية على مستوى الحياة الاجتماعية، وكان من مظاهره "حرية

الأفراد". وهكذا أصبحت -حسبهما- الحياة الاجتماعية متماهية في الحياة الاقتصادية كونهما يشتركان في نفس المبدأ "الحرية". وهو ما يوضّح -من وجهة نظرهما- كيف أنّ الهيمنة الرأسمالية أصبحت تكتسح مجالات أخرى من المجتمع غير المجال الاقتصادي، وفي الوقت نفسه ينظر اليها الأفراد على أنّها مصدرا للعيش الكريم وتحقيق الذات والشعور بقيمة الأنا (الفرد الأناني). ومن أجل الحفاظ على هذه المكاسب (الحقوق) راح الأفراد يندمجون في هذا التنظيم ويتكيّفون مع قوانينه بكل انسجام ومرونة. وكانت نتيجته أن هذا الفرد "الأناني" أصبح في ظل هذه الأوضاع يطبّق العقل الأدائي على نفسه (المصلحة)، ما حوّله إلى فرد خاضع للهيمنة المفروضة من طرف المصلحة التقنية سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وهنا، يكون العقل -حسب هوركهايمر وأدورنو- قد بلغ أدنى درجات الانحطاط إذ تحوّلت وظيفته إلى مجرد وظيفة أدائية - تقنية⁶.

إذن، فالعقلانية الأدائية ما هي-من وجهة نظر هوركهايمر وأدورنو- إلا أداة هيمنة في صورتها الاقتصادية (المادية)، مهما حاولت التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية منحها طابع الحرية والاستقلالية والرفاهية، كما أنّها السبب الرئيس في ظهور ظاهرة التشيؤ واغتراب الإنسان عن ذاته أولا وعن عالمه ثانيا «...إنّ ارتفاع مستوى حياة الطبقات الدنيا، بشكل واضح ماديا وبشكل لا دلالة له اجتماعيا ينعكس فيما نسميه نفاقا انتشار الروح أو العقل. أمّا فائدته الفعلية فليست أكثر من نفي التشيؤ. أمّا العقل فلا بقاء له حين يتحدّد بوصفه إرثا ثقافيا يوزع على غايات الاستهلاك...»⁷.

3.2 الجانب الثقافي (الفني):

لقد خصّص هوركهايمر وأدورنو جزءاً مهماً من كتابهما المشترك "جدل التنوير" يعرضان فيه طبيعة العلاقة بين التنوير (العقل الأداتي) والثقافة في عنوان بارز؛ "صناعة الثقافة". كما يشرحان فيه الطريقة التي يتم من خلالها تحويل الثقافة نفسها إلى أيديولوجيا في مجتمع خاضع للهيمنة التقنية.

يُشير مفهوم الثقافة هنا كما عبّر عنه هوركهايمر وأدورنو إلى نمط معيّن من الإنتاج الفكري غير ذلك النمط التقليدي كما هو متعارف عليه في الثقافات الشعبية والجماهيرية المتأصلة في عمق الشعوب. إنّها الثقافة التي تمّت صنعها تحت رقابة التقنية من أجل خلق واقع ثقافي مماثل للنموذج الصناعي. ولقد كان غرضهما من هذا التمييز بين الثقافتين (أصيلة وصناعية)، هو إمالة اللّثام عن ذلك الوهم (الخداع) الذي يحيط بثقافة التنوير: «التنوير وخداع الجماهير»⁸.

بالنسبة إليهما، فإنّ المجتمع الذي يقوم ببناءه الاقتصادي على التصنيع والتقنية، هو نفسه المجتمع الذي ينتج (يصنع) الثقافة. وهي ثقافة تنمّاهي والنمط الصناعي الذي تفرضه تنظيمات المجتمع وفقاً لما يخدم ويحقق مصالحها. ما يميّزها هو أنّها ثقافة زائفة تعكس الوجه الآخر للمجتمع الصناعي (القمعي)، يتبنّاها الأفراد على أنّها جزء من هويّتهم دون أن يدركوا بأنّها لا تعدو أن تكون في واقع الأمر سوى صناعة الأنظمة الليبرالية (القمعية)⁹. وهكذا، فإنّ "صناعة الثقافة" في نظر هوركهايمر وأدورنو ما هي إلّا نتاج عقلانية أداتية في صورتها الليبرالية، غايتها خلق ثقافة خاضعة لمنطقها الاقتصادي والاجتماعي.

انطلاقاً من هذا المبدأ الليبرالي في "صناعة الثقافة" كشف هوركهايمر وأدورنو عن شكل آخر من الهيمنة الأداتية مبطن في هذا التنظيم الاقتصادي. وهو أنّ الثقافة بهذا المعنى (الليبرالي) تغدو مجرد سلعة (بضاعة) يتم تبادلها واستهلاكها من طرف الأفراد كما تتبادل وتُستهلك باقي السلع الأخرى وفقاً لقوانين السوق (الاستهلاك، العرض والطلب، الربح...)، وإذ هي تأخذ هذا الشكل، فهي في الوقت نفسه تتحول إلى أداة تستلب ذواتهم وتهمين على وجودهم الاجتماعي عبر وسائل مختلفة (وسائل الإعلام، التلفزيون، الإذاعة، السينما، المسارح، دور العرض...) وعليه، يصبح الأفراد مجرد مستهلكين لثقافة زائفة لا تُعبّر عن حقيقتهم وأصالتهم (طبيعتهم)¹⁰.

هذا ما تنتجه العقلانية الأداتية (وهم، خداع، استلاب، قمع وهيمنة) على مستوى الحياة الثقافية للأفراد -من وجهة نظر هوركهايمر وأدورنو-، وكل ذلك من أجل أغراض اقتصادية (مادية) متخفية وراء غطاء "الثقافة" «...إنّ الثقافة عبارة عن سلعة ظاهرة التناقض. فهي تخضع كلياً لقانون التبادل مع أنّه لا يمكن تبادلها بحد ذاتها؛ إنّها سلعة تذوب بشكل أعمى في الاستهلاك رغم عدم قابليتها لذلك... أمّا الدوافع فهي اقتصادية في العمق...»¹¹.

4.2 الجانب السياسي:

إنّ هيمنة العقلانية الأداتية -كما يراها هوركهايمر وأدورنو- امتدّت لتشمل مجالا آخر لا يقل أهمية عن المجالات الأخرى، وهو المجال السياسي، حيث تجلّت فيه من خلال الأيديولوجيا. فهي لم تكتفِ باستلاب الإنسان (الفرد) بتحويله إلى مجرد أداة لتحقيق غايات اقتصادية (مادية) تحت مُسمّيات مختلفة: الاستقلالية، الفردانية، الاستمتاع، الرفاهية... وإنّما تريد إخضاعه أيديولوجياً أيضاً ليصبح أكثر تبعية من ذي قبل وهذه المرّة تحت مُسمّى

الديمقراطية، الدستور، القانون، الحقوق... ويبقى الغرض في السياسة (الأيدولوجيا) -بالنسبة إليهما- هو نفسه كما في الصناعة الثقافية، "خدمة المستهلكين وإعادة تربيتهم" وكلاهما أيديولوجيا «...فالوحدة الجذرية التي توحى بها الصناعة الثقافية تُعلن بوضوح ما يجري في السياسة... لخدمة المستهلكين ولإعادة تربيتهم...»¹².

وهكذا، فإنّ التنوير الذي كان يفترض أنّه جاء من أجل تحرير العقل من الخرافة والسّحر والأساطير، انتهى إلى انتاج الهيمنة عبر أدوات (العقل الأداتي، التقنية، صناعة الثقافة)، والتي أصبحت بدورها أدوات للسياسة تُوظّفها أيديولوجيًا من أجل السيطرة على المجتمع وتكريس سلطتها داخله. هذا ما استنتجه هوركهaimer وأدورنو من خلال نقدهما للعقل الأنواري "أساس الحداثة".

في تصوّرهما للحلول (هوركهaimer وأدورنو) الممكنة من أجل تجاوز هيمنة العقلانية الأداتية (التقنية)، رأى أدورنو في الفن الطليعي (الأصيل) السبيل الأمثل لكشف الخداع الذي تمارسه الصناعة الثقافية في التأثير على الجماهير. فهو وحده يُعبّر -حسبه- عن الطبيعة الحقيقية للذات وللمجتمع من خلال إعادة تمثيل الواقع والتعبير عنه كما هو في الحقيقة دونما زيف أو خداع. بينما اكتفى هوركهaimer بالنقد الفلسفي (النقد العقلي).

3. موقف هابرماس من الحداثة:

يقف هابرماس كأحد أبرز المدافعين عن الحداثة معتبرا إياها "مشروعا لم يكتمل بعد". وكان هذا الموقف الذي تبناه تجاه الحداثة، عنوانا رئيسيا لمؤتمره الذي ألقاه بمناسبة حصوله على جائزة "أدورنو" عام 1980

«...الحداثة مشروع لم يكتمل، هكذا كان عنوان المؤتمر الذي أقيته في سبتمبر 1980 عندما حصلت على جائزة أدورنو. هذا الموضوع المثير للجدل والمتعدد الأوجه لم يفارقني منذ ذلك الحين...»¹³.

لقد اعتبر هابرماس أنّ الحداثة محطة تاريخية وفكرية مهمّة وجب الوقوف عندها وتثمين منجزاتها، ولعلّ أهمّها على الإطلاق؛ "العقلانية"، سمة الأنوار. وكان ذلك بعد حقبة طويلة من تاريخ أوروبا ساد فيها الفكر الميتافيزيقي بدل العقل (العصور الوسطى). ويحدّد هابرماس المحطّات الكبرى التي ميّزت هذه المرحلة بثلاثة أحداث مهمّة هي: اكتشاف العالم الجديد، النهضة والإصلاح «...إنّ اكتشاف العالم الجديد والنهضة والإصلاح -الأحداث الثلاثة الكبرى التي وقعت منذ حوالي عام 1500- تشكّل العتبة التاريخية بين العصر الوسيط والعصر الحديث...»¹⁴.

ما يجب أن نشير إليه، هو أنّ دفاع هابرماس عن العقل الأنواري لا ينبغي أن يُفهم منه على أنّه يعني عدم اعتراف هذا الأخير بكل تلك السلبيات التي رافقت الحداثة طيلة مسارها (الذاتية، العقلانية، الأداتية، العلمية...). لكن وعلى خلاف نُقّاد الحداثة (دعاة ما بعد الحداثة)، فإنّ هابرماس لم تكن نظرتة تشاؤمية بخصوص هذا المشروع، إذ لم يحكم لا بفسل العقل ولا بانتكاسة الحداثة، بل سعى إلى تبني منهج يُحاول من خلاله إصلاح الجوانب السلبية فيهما. وهو ما تحقّق بفضل العقلانية التواصلية التي تخطّى بها مساوئ العقلانية الأداتية «...وبذلك انزاح محور البحث من العقلانية العرفانية الأداتية، إلى العقلانية التواصلية...»¹⁵.

ينطلق هابرماس في دفاعه عن الحداثة من موقف هؤلاء النقاد الذين يكونون -حسبه- قد ركّزوا نقدهم على جانب واحد فقط من العقل الأنواري، وهو الجانب الأداتي معتبرا موقفهم هذا ينمّ عن قصور في الرؤية، ذلك أنّهم أغفلوا جوانب مهمّة من هذا العقل، وأهمّها العقلانية التواصلية (العقل التواصلية).

تُمثل العقلانية التواصلية الحجر الأساس في النظرية الاجتماعية عند هابرماس (نظرية الفعل التواصلية). فهي بمثابة الحل لكل تلك الأزمات التي تسبّبت فيها العقلانية الأدائية بتحالفها مع التقنية، ما أدى -حسب هابرماس- إلى انحراف الحداثة عن مسارها الصحيح الذي حدّدته الأنوار. لهذا كان لابدّ من نقدها أولاً ثم إصلاحها وإعادة بعثها من جديد كمشروع إنساني حضاري وتحرّري. هذا ما سعى إليه هابرماس من خلال نظريته التواصلية «...ولهذا السبب فإنّ التحدي الذي يشكّله نقد العقل بقيادة البنيوية الجديدة يحدّد وجهة النظر التي سأحاول من خلالها إعادة بناء الخطاب الفلسفي للحداثة خطوة بخطوة...»¹⁶.

يربط هابرماس مفهوم العقلانية بعملية التواصل التي تستند إلى قدرة الأشخاص (الذوات) على الكلام والتفاعل داخل عالمهم المعيش «إنّ ما نسميه "عقلانية" هو في المقام الأوّل الاستعداد الذي يظهره الأشخاص القادرون على الكلام والتفاعل...»¹⁷. وتتجلى غايتها في الوصول إلى الاعتراف والتفاهم المتبادل بين الذوات بناءً على معايير عقلانية (ادعاءات الصلاحية: الصدق، الصحة، الصواب، الدقة، الحقيقة...) يؤسّس عليها الحوار.

بالنسبة إلى هابرماس، فإنّ العقلانية التواصلية (العقل التواصلية) استطاعت أن تتجاوز الكثير من مطبّات الحداثة، كما استطاعت في الوقت نفسه أن تؤسّس للكثير من النظريات ذات الأبعاد الاجتماعية والأخلاقية والسياسية. وذلك من خلال:

1.3 الجانب الفلسفي:

أ- تجاوز الذاتية (الفردانية):

إنّ أهم ما ميّز الحداثة هو مبدأ الذاتية (مركزية الذات)، وذلك على امتداد فلسفة الذات من ديكارت إلى كانط. فالذات الإنسانية التي تمّ تجاوزها واستبدالها بالأبعاد الميتافيزيقية لعهود طويلة، أصبحت مع حلول التنوير القيمة الوحيدة التي يؤول إليها تقييم العالم الخارجي¹⁸.

هذا الانحياز للذاتية أدى -حسب هابرماس- إلى ظهور عدّة مظاهر أثّرت سلباً على الحياة المجتمعية أهمّها ظهور الفردانية على حساب الجماعة. وتبقى أهمّ ظاهرة سلبية بالنسبة إليه تتمثل في انفصال الذات عن الآخر وتفرداها المفرد «...في هذا السياق يحمل مصطلح الذاتية أربع دلالات رئيسية: أ) الفردانية: في العالم الحديث: فإنّ التفرد اللامتناهي والخاص للغاية هو الذي يحق له أن يطرح مطالبه...»¹⁹.

لهذا، فقد رأى هابرماس في العقلانية التواصلية أداة لتجاوز مبدأ الذاتية، الإرث الفلسفي للعقل الأنواري (فلسفة الذات). هذا ما ظهر من خلال ذلك الانتقال من العقل المُتمركز حول ذاته إلى العقل التواصلية الذي يفترض وجود الآخر (المجتمع) في علاقة تواصلية بينذاتية قائمة على أساس الحوار والفهم المتبادل²⁰.

إذن، فمَهْمَة العقل التواصلي تظهر في قدرته على الخروج من دائرة الذات المنغلقة على ذاتها إلى العالم الخارجي في محاولة منه لاكتشافه وربط علاقات تواصلية - تفاعلية بينذاتية داخل المجتمع وإذ هو يُحقق ذلك، فإنّه يتهيأ لتأسيس معارف أخرى جديدة موضوعها الإنسان في علاقته بعالمه (مجتمعه) «...إنّ تغيير البراديغم والانتقال من العقل المتمركز (حول الذات إلى العقل التواصلي يمكن ان يشجعنا أيضا على القاء نظرة جديدة على هذا الخطاب المركزي الذي يسكن الحداثة...»²¹.

ب- تجاوز العقلانية الأداتية (الهيمنة الأداتية):

هابرماس، وهو يُعيد تعريف مفهوم العقلنة، من العقلانية الأداتية إلى العقلانية التواصلية، استطاع أن يكشف أنّ العقل ليس مجرد أداء وكفاءة كما يتجلى في العقلانية الأداتية، بل هو أيضا تواصل وتفاهم واعتراف متبادل وقيم مشتركة يُمكنها أن تفتح أفقا جديدة نحو عالم إنساني متميّز وحر «...يؤكد العقل التواصلي نفسه (ذاته) في قوة التماسك المتأصلة في الفهم البينذاتي والاعتراف المتبادل، وبالتالي فهو يحيط حتى الكون (العالم) بشكل من أشكال الحياة المجتمعية...»²².

2.3 الجانب الاجتماعي:

لقد لاحظ هابرماس أنّ المجال العام البورجوازي أصبح خاضعا لتأثير السوق والتقنيات البيروقراطية والدعاية، ووسائل الإعلام والصناعة الثقافية والإعلانات من أجل صناعة الرأي العام²³. وهو ما يدل على غياب حريّة الرأي والتعبير والإرادة في اتخاذ القرارات بخصوص القضايا العامة التي

تهم المجتمع، مادام الرأي العام في الأخير يتشكل عبر الدعاية لصالح التقنية المتخفية تحت أشكال مختلفة (ثقافية، اقتصادية، سياسية...). وهو ما عبّر عنه هابرماس من خلال كتابه "العلم والتقنية كأيديولوجيا" بقوله: «...أصبح العلم والتقنية نفسها أيديولوجيتين...».²⁴

لهذا، فقد كان لنقد العقلانية الأدائية من قبل هابرماس، وكشفه عن الوجه الآخر للعقل، أي العقل التواصلية (العقلانية التواصلية)، نتائج واضحة على مستوى الحياة الاجتماعية، تجلّت من خلال تغليب النقاش العقلاني والتفاهم البينذاتي في تشكيل الإرادة العامة والرأي العام. فالمجتمع يعبر عن ذاته في الخطاب المبني على ادعاءات الصلاحية والاعتراف المتبادل والحجاج والإقناع، وبالتالي يتحرّر من الهيمنة الأدائية (التقنية) ويُعيد تشكيل علاقاته على أسس التواصل-العقلاني.

3.3 الجانب الأخلاقي:

لقد رأى هابرماس أنّ العالم المعيش للمجتمع البورجوازي الحديث أصبح محتّلاً من طرف ثلاث قوى رئيسة (المال، السلطة، التضامن) تشكّل الأدوات المُشرّعة للمعايير والقيم داخله، وفقاً لما يتوافق ومبادئها حتى يتمّ تكريسها ضمن منظومة أخلاقية يخضع لها المجتمع ويستمد معاييرها منها «...إذ أعتقد، وبصورة إجمالية، أنّه تم إدماج حتى لا أقول إخضاع المجتمعات المعاصرة المعقّدة عبر وسائط وآليات ثلاث: "المال" انطلاقاً من كونه إحدى الوسائط المهمّة فقد تمت شرعنته وفق مبادئ السوق. "السلطة" وقد تم ترسيخها داخل المنظمات. و"التضامن" وقد ترجم إلى معايير وقيم وإلى تواصل أيضاً...».²⁵

لهذا، فقد رأى هابرماس ضرورة تأسيس أخلاق جماعية مشتركة من خلال تداول نقاش عقلاني - تواصلية حرّ قائم على ادعاءات الصلاحية ومبدأ الاحترام المتبادل والاعتراف والإجماع، تشترك فيه جميع الذات. وهي الأسس التي تحدّد لديه ما يطلق عليه "أخلاق النقاش" «...من دون الحرّية غير المحدودة في التعبير عن الرأي الفردي بشأن ادعاءات الصلاحية التي يمكن نقدها، لا يمكن أن يكون هناك رضا فعلي يتمتّع بطابع كوني حقيقي...»²⁶. ويهدف هابرماس من خلال أخلاق النقاش العمومي إلى عقلنة جميع المجالات داخل الفضاء العمومي على اعتبار أن النقاش داخله يأخذ طابعاً عاماً يشمل جميع الأطراف ويتطرّق إلى جميع القضايا ويتمّ في النهاية تشكيل الرأي العام بناءً على الاتفاق والإجماع. «...الاستراتيجية الخاصة بأخلاقيات النقاش، التي تهدف إلى استخلاص مضامين أخلاق كونية انطلاقاً من الافتراضات العامة للجدال، هي استراتيجية مثمرة تحديداً لأنها تجعل النقاش شكلاً من أشكال التواصل الأكثر طلباً، والذي يتجاوز الأشكال الملموسة للحياة...»²⁷.

4.3 الجانب السياسي:

في المجال السياسي، رأى هابرماس أنّ الحداثة السياسية القائمة على العقلانية الأداتية كانت وراء ظهور عدّة مشاكل ساهمت في تأزم أوضاع المجتمعات الغربية. فالذاتية كانت سبباً في مركزية الإنسان، ما أدّى إلى تأسيس أنظمة سياسية تنوعت بين ديمقراطية ودكتاتورية (شمولية). كما أنّ العقلانية

الأداتية انتجت البيروقراطية التي تحوّلت من أداة ضبط وترشيد للمجتمع إلى أداة قمع. أمّا العلموية فقد أدّت إلى التكنوقراطية حيث أصبحت السياسة تُدار من قبل الخبراء والمختصين. والنتيجة هيمنة التقنية على السياسة.²⁸

حاول هابرماس إيجاد حلول لهذه الإشكالية السياسية، من خلال نظريته التواصلية، إذ رأى أنّه لا يمكن تحرير المجتمع سياسيًا إلا من خلال نظام ديمقراطي تداولي (تشاوري) يتم الاتفاق حوله من خلال النقاش العام داخل الفضاء العمومي. فهو وحده يُجسّد مبدأ دولة القانون والسيادة الشعبية وفصل السلطات «...أمّا المواطنون المشاركون في هذا المشروع المشترك (الديمقراطية) فبإمكانهم، وبطريقة متناسقة التّضال بغية تحسين الشروط التي تمكنهم من ولوج مناسب ومشاركة فعلية في السياسة الاستشارية او التداولية...».²⁹

4. الاستنتاجات:

- العقل الأنواري بتحالفه مع العلم والتقنية، أنتج عقلانية أداتية كانت سببا في ظهور ما يُسمى بأزمة أو مأزق الحداثة. وقد تجلّى ذلك من خلال هيمنة المجال الصناعي والاقتصادي على الحياة الإنسانية.
- هذه الهيمنة التقنية أدّت إلى القضاء على الأبعاد الروحية والإنسانية والحضارية، حيث حوّلت الإنسان إلى ذات مستلبة فاقدة لجوهرها.
- امتدّت هذه الهيمنة الأداتية إلى جميع مجالات الحياة: من الاقتصاد إلى السياسة، ومن الثقافة إلى الأخلاق.
- استطاعت العقلانية التواصلية إلى حدٍّ ما أن تتجاوز العقلانية الأداتية، وذلك من خلال تبني منهج الحوار والتفاهم المتبادل بين النوات.

- هذا البعد التواصلي القائم على أساس الحوار، فتح الأفق واسعا أمام النقاش العام داخل الفضاء العمومي، ممّا أنتج ديمقراطية تشاورية خفّفت من حدة التصدّع الذي أصاب الحياة الإنسانية بسبب الهيمنة الأدوات.

- ورغم جميع محاولات العقلانية التواصلية لتجاوز إشكالية الحداثة، فإنّها لا تزال قائمة حتى اليوم، ولم تُحل بعد.

5. الخاتمة:

تبقى إشكالية الحداثة إلى يومنا هذا متأرجحة بين عقلانية أداتية تُسلّط الضوء على الجوانب السلبية للمشروع الحداثي، وذلك من خلال نقد العقل الأداتي المرتبط بالهيمنة التقنية، وتحميله مسؤولية ما آلت إليه المجتمعات المعاصرة من أوضاع متأزمة، وبين عقلانية تواصلية تسعى إلى البحث عن الحلول المناسبة لهذه المعضلات من خلال تبني لغة التواصل والحوار والتفاهم البينداتي. وبين هذا وذاك، يظلّ السؤال مطروحا حول مصير الإنسان المعاصر في ظلّ تردي الأوضاع العالمية الراهنة، التي أصبحت تُشكّل تهديدا مباشرا على حياة الأفراد والمجتمعات، والتي تزداد حدة يوما بعد يوم (الحروب، الثورات، المجاعة، الفقر، تغوّل السوق ورجال المال والأعمال، الأزمات الاقتصادية والسياسة، أزمات الهجرة واللاجئين...). وخلاصة كل هذا، هو أنّ "مشروع الحداثة لم يكتمل بعد" ولا تزال المجتمعات تتطلع إلى حلول تحفظ وجودها، وتضمن أمنها وسلامها ورفاهيتها، وتحيي إنسانيتها.

6. قائمة المراجع:

1. آلن هاون، النظرية النقدية: مدرسة فرانكفورت، ترجمة: نادر ديب، (القاهرة، دار العين للنشر، 2010)، ط 1.

2. علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحداثة، (الرباط، دار الأمان، 2011)، ط 1.
 3. ماكس هوركهايمر، تيودور ف أدورنو، جدل التنوير، ترجمة: جورج كتوره، (بيروت، دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2006)، ط 1.
 4. يورغن هابرماس، إيتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ترجمة: عمر مهيبيل، (بيروت، الدار العربية للعلوم- ناشرون، 2010)، ط 1.
 5. يورغن هابرماس، نظرية الفعل التواصلية، المجلد الأول، ترجمة: فتحي المسكيني، (بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، دون تاريخ)، ط 1.
 6. Jürgen Habermas, De l'éthique de la discussion, Traduit: Marc Hunyadi, (Paris, Flammarion, 2013).
 7. Jürgen Habermas, La technique et la science comme "idéologie", Traduit : Jean-René Ladmiral, (Paris, Editions Gallimard, 1973).
 8. Jürgen Habermas, Le discours philosophique de la modernité, Traduit: Christian Bouchindhomme et Rainer Rochlitz, (Paris, Gallimard, 1988).
7. الهوامش:

- ¹ ماكس هوركهايمر، تيودور ف أدورنو، جدل التنوير، ترجمة: جورج كتوره، (بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006)، ط 1، ص 23-24..
- ² المصدر نفسه، ص 143.
- ³ المصدر نفسه، ص 24.
- ⁴ آلن هاو، النظرية النقدية: مدرسة فرانكفورت، ترجمة: ثائر ديب، (القاهرة، دار العين للنشر، 2010)، ط 1، ص 141.
- ⁵ ماكس هوركهايمر، تيودور ف. أدورنو، مرجع سابق، ص 17.
- ⁶ آلن هاو، النظرية النقدية: مدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 56.
- ⁷ ماكس هوركهايمر، تيودور ف. أدورنو، جدل التنوير، مرجع سابق، ص 17-18.

- ⁸ المصدر نفسه، ص 141.
- ⁹ آلن هاو، النظرية النقدية: مدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 107.
- ¹⁰ آلن هاو، النظرية النقدية: مدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص 117.
- ¹¹ ماكس هوركهايمر، تيودور ف. أدورنو، جدل التنوير، مرجع سابق، ص 188-189.
- ¹² المصدر نفسه، ص 144.
- ¹³ Jürgen Habermas, Le discours philosophique de la modernité, Traduit : Cristian Bouchindhomme et Rainer Rochlitz, (Paris, Editions Gallimard, 1988), p. IX.
- ¹⁴ Ibid., p. 6.
- ¹⁵ يورغن هابرماس، نظرية الفعل التواصلي، المجلد الأول، ترجمة: فتحي المسكيني، (بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، دون تاريخ)، ط 1، ص 612.
- ¹⁶ Ibid., p. IX.
- ¹⁷ Ibid., p. 371.
- ¹⁸ علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحداثة، الرباط، دار الأمان، (2011)، ط 1، ص 103.
- ¹⁹ Jürgen Habermas, Le discours philosophique de la modernité, Op. Cit., p. 20.
- ²⁰ علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحداثة، مرجع سابق، ص 106.
- ²¹ Jürgen Habermas, Le discours philosophique de la modernité, Op. Cit., p. 356.
- ²² Ibid., p. 383.
- ²³ علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحداثة، مرجع سابق، ص 74-75.
- ²⁴ Jürgen Habermas, La technique et la science comme idéologie, Traduit et préfacé : Jean – René Ladmiral, (Paris, Editions Gallimard, 1973), p. 62.
- ²⁵ يورغن هابرماس، إيتيقا النقاش ومسألة الحقيقة، ترجمة: عمر مهيبيل، (بيروت، الدار العربية للعلوم – ناشرون، 2010)، ط 1، ص 47.
- ²⁶ Jürgen Habermas, De l'éthique de la discussion, Traduit : Mark Hunyadi, (Paris, Flammarion, 2013), p. 23.
- ²⁷ Ibid., p. 22.
- ²⁸ علي عبود المحمداوي، الإشكالية السياسية للحداثة، مرجع سابق، ص 136.
- ²⁹ يورغن هابرماس، إيتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، مرجع سابق، ص 36.